الجزء الثالث

الفصل الرابع

دخان عمي لثورة ما سرت حمياها في الأعماق مذ عرفت فلسطين الإنتـداب، ومهازل الإنتداب، يصعده في الجو بركان واغر بالأحقاد.. التوتر فـي ضـرام.. تباين ما بين القومين، وفار فائرهم.. وكل اعتداء ينغر الصدور، ويحتفزها لأمـر خطير..

واضطرت العائلة بسبب الإضطرابات ومنع التجول المتواصل لهجر بيت جالا، والإقامة في القدس، حتى لا تشلّ أعمال أفرادها وتتعطل مدارسهم، وتفاديا لنفقات السيارت الباهظة بين البلدين لستة أفراد غدوا ورواحا كل يوم..

الأمور تسير في بهمة، وما من أحد يدري ان كانت الى تفاقم أو تواؤل.. ولكن طلب الأمن لا يغني عن طلب المعيشة.. وانتخب عبد ارحمن لهـم دارا نازحـة حديثة البناء لمهاجر أمريكي من شعفاط في القدس الجديدة عنـد منتهـى الـشيخ جراح.. وأضيف أثاث جديد من بقية ثمن منزل لهم في سوريا، رهن ووفيت بـه الديون.. وتحسنت حالة العائلة تحسنا ملموسا، فقد تضاعف راتب عبد الـرحمن، وتوظف أديب كمعلم ابتدائي، وانطلق عمل الوالد، فما ترى قروية الاّ وهي تميس بأثواب من الأطلس الملون طرز بالأغباني تطريزا فاخراعلى صـدره وجانبيـه بالطريقة المعهودة الفولكلورية لقرويات فلسطين.. واستعد عبد الـرحمن لتجهيـز نفسه بأثاث من خشب الجوز، صنع دار الأيتام الإسلامية، استعدادا لعرسه، وقـد بسم له الحظ بعد طول جهاد برهن فيه إخلاصه وأمانته وكفاءته للعمل..

وانتحت سلمى في كتابتها منحى جديدا يلائم تطور الحالة.. فما عـاد الخـوف يكبت ألسنة الصحفيين عن توضيح الأمور للرأي العام، وان كانت الحقائق تنتقـب نقابا شفافا من التورية.. وخرجت المجلّة الي كانت سلمى تمدها بأقاصيصها فـي ثوب جديد.. جريئة في اعلان رأيها..

كم لهفت سلمى الى مثل هذا الإنقلاب الجديد في وعي الناس! جوارحها تهتـز ارتقابا.. انها في توق الى شيء.. الى ثورة.. وهي تطرب لتلاظيها ليكسر الشعب الفلسطيني أغلاله.. فلن يكون تحرره مما ناله من أذى الاّ بالثورة على أوضاعه!

وتدهش لأحاسيسها، وتحاول أن تحللها في تؤدة.. لماذا يهزها الفرح الطـاغي؟ أتراه الألم يود أن ينسى نفسه في ألم أقسى منه؟ أتراها الحاسة القصصية تريد ما يثيرها؟ أتراها الثورة النفسية للظلم الذي يحيق بشعب فلـسطين يفجـر طاقتهـا الإبداعية؟ وهي تريد أن تعبر عن نفسها بطريقة مغلفة، وترحب بجو يلائمها؟

لم تعرف جوابا شافيا لما ساءلت به نفسها، ولكنها تعرف أن شيئا ما لا يقر في ضلوعها.. وأن اهتزازا يوثب خافقها حماسا حين تقرأ مقالات رئـيس التحريـر اللاهبة..

ونمت صداقة بينها وبين أديب.. فهذه مواضيع تلقى أرضا خصبة في نفـسه.. وأسر اليها يوما وهما قرب المذياع في الردهة، أنه يود الإنتمـاء الـى جماعـة إرهابية بينها رفاقه لسرقة البنوك وشراء الأسلحة للدفاع عن الوطن فأجابته:

- الغاية نبيلة، ولكنها لا تبرر هذه الوسيلة الملتوية.. فان فـشلتم وقـبض عليكم فستعاملون كمجرمين، ولن ينظر الى دافعكم الوطني.. وان نجحتم فلا تنس أن جلّ زبائن البنك وان لم يكن عربيا مـن العـرب.. فـأنتم تتصرفون بمال ليس لكم الحق في التصرف به، ولا يجوز لكم أن تتخذوا هذا الدافع ذريعة لتبرير عملكم!
- انني أكاد أجن.. لامن يوجهنا ولا من يقودنا لإنقاذ الوطن.. ان زعماءنا وقادتنا يخلون الديار قبل أن تنشب المعركة..
- نحن لا نستطيع أن ندرك مداخل الأمـور ومخارجهـا..لا شـك أنهـم يستعدون ويحسنون تصريف الأمور للحظة الحاسـمة.. وعلينـا نحـن الإنقياد لا القيادة.. فنحن أغرار وما يحسن أن يذهب الحماس بلبنا.. كل فرد فيكم بوسعه أن يستعد ويشتري بارودة وما يكفيه من الـذخيرة دون اللجوء الى وسائل خطرة..

وراحت يوما وقد متع النهار تقرأ في المطبخ وهي تستدفئ قرب الفـرن على والدتها مقالة النهار بحماس، بينما راحت الأم تعـد طعـام الغـذاء بصمت، وذهن متفتّح، وقد زمت شفتيها الرقيقتين:

- لا شك يا ماما أن الأمر خطير.. فنحن على أبواب ثورة مـسلّحة، فـلا تلومي أديب ان أرادنا على الإستعداد للدفاع عن أنفسنا..
- نحن نعيش في جو مسموم يا سلمى! فمن يدرينا أن من يبيعنـا الـسلاح يودي بنا في داهية.. ان رصاصة واحدة كانت سببا لشنق من توجد فـي حوزته من العرب.. وهذا الشاب الوطني "فؤاد حجازي" مثل على ذلك.. فلا تتسرعوا يا أولاد وانتظروا ما تفعل بنا الأيام!
- ولكن يا ماما اليهود يستعدون لمعركة وإجلائنا عن أرضنا بالقوة المسلحة تحت سمع حكومة الإنتداب وبصرها، ولن تقبـل نفـس كريمـة هـذا الوضع..
- سلمى! أنت تفسدين إخوتك.. وماذا يهمك أنت؟ لم تذوقي الآلام التي التي ذقتها في حملهم وولادتهم وتربيتهم.. فهل أقذف بهم في فم المدفع؟ عندما تصبح ثورة عامة يشترك فيها الكبير والصغير يكون الأمر مختلفا، مـا يجري علي يجري على سواي، ولن أكون بأفضل من باقي الأمهات..
- ولكن حتى تصبح ثورة عامة يجب أن نكون مستعدين متمرنين..
- وأين تتمرنون؟.. انني أعرف النتيجة.. خراب هذا المنزل وحرماني من أولادي بالقتل والتشريد..
- ماما، تصوري لو أن كلّ أم تقول قولك، ماذا تكـون النتيجـة؟ الـوطن بحاجة الى تضحية والاّ فقدناه وهلكنا.. ان النظرة الفردية خطرة.. فنحن فانون والوطن خالد!
- هذا ليس وطننا! وما نحن فيه الاّ غرباء..
- كلاّ ياماما كل أرض عربية وطننا! والى هذا فسنكون في قلب المعركة، وسنضطر للدفاع عن أنفسنا، أم هل تريدين منا أن نذبح كالنعاج؟..

واحتد النقاش حتى عودة الأبناء واشترك فيه الجميع.. وانحازت الأغلبية الى سلمى مما أثارغيظ والدتها، فاحتـدمت واسـتغربت فـي حـدتها، وشعورها الأموي قد سيطر على ما عداه..

- أنت مجرمة! تعبثين بالنار.. وانني أتمنى لو أنك متّ منذ مولدك..

وما عادت سلمى تقوى على كبت زمام نفسها:

- آسف أن أقول بأنك لست أما حكيمة! إنتظري حتى ترينا نـذبح أمامـك كالنعاج، أو يهدم المنزل فوق رؤوسنا! ليتك لم تكوني أمي!

وأخذت الوالدة رجفة من الغضب، ولكنها لم تحر جوابا، بل رشقت سلمى بنظرة شذرة..

وران على الجميع سكون رهيب!.. وانهارت سلمى، وأحست بالخزي.. حقا ان والدتها خطئت الصواب في رأيها، رغم أصالتها.. وما كان يجدر بها أن تهين فتاتها الشابة في بادرتها.. ولكنها أم ولها حـقّ الأمومـة.. حتى أنثى الحيوانات تدافع بشراسة عن صغارها أمام خطر يتهددهم.. أما هي فأي عقوق!..

ولمحت إخوتها وأخواتها يحدجونها بنظرات ذاهلة، فانفلتت الى غرفتهـا حزينة القلب، وأغلقت دونها الباب:

- ان معاملتها لي قد تغيرت منذ تركت أحمد.. انني أشـعر بهـذا دون أن تتكلّم.. انها تحقد علي!..

ولكنها كانت غاضبة من نفسها لاستسلامها لتـوتر الأعـصاب وهيـاج النفس، وبكت بسخاء وصمت في الظلام.. وعاتبت نفسها بقولها:

- أيفلت مني أنا زمام نفسي وأستسلم لنزوة الغضب وأسـيئ لمـن جنينـا حملتني، وطفلة رعتني، وشابة حفظتني؟

أية قدوة كنت لإخوتي الأصغر مني سنا؟.. رأيت فـي أعيـنهم الألـم المكبوت، كما رأيت في عينيك انهيار أملك بفتاتك.. وعـذبتني نظرتـك وصمتك، ونهشت قلبي.. في تلك اللحظة أدركت ما ارتكبت في حقـك، وهانت نفسي علي.. وتمنيت لو رددت إساءتي بصفعة فأقبلهـا برضـى

وارتياح أنا التي لم تمتد يد أحد لضربي، ولكنك لـم تفعلـي، وتركتنـي لضميري يعذّبني..

وفي اليوم التالي أفاقت سلمى مفجرة والكآبة لا تزال آخـذة بأنفاسـها.. انبثاقة نهار مقدس، يوم جمعة.. وحين رأد الضحى، استجمعت شجاعتها الى حيث اعتصب إخوتها حول المدفأة في غرفة الجلوس، وقبلت وجنـة والدتها راجية أن تغفر جنحتها فضمتها والدتها اليها! كالبحر يضم جدولا صغيرا، وكأشعة الشمس تغمر جسما مقرورا، كان قلب الأم المتـسامح يضم اليه قلب فتاتها النادم:

- لا تصدقي يا بنية أن صدر الأم يحمل حقدا على فلـذات كبـدها مهمـا تنكروا لها.. لا ولا ذرة ضغينة.. لا أنكر أنني تأثرت لكلمتك، ولكننـي لمت نفسي للهجة الخشنة التي بادرتك بها.. هذه الحادثة علمتني درسا أن آخذ حذري في معاملة أطفالي الكبار والصغار..

وعانقت سلمى والدتها ودموعها تنهمل:

- لا تأخذي حذرك يا ماما.. لا تتكلفي في معاملتنا.. فنحن نعلم أن قسوتك رحمة تتقنع، وخشونة لفظك حنان يتنكّر.. وهتفت الأم:

- كم أنا سعيدة أن عادت فتاتي الى أحضاني.. وتألقـت عيناهـا بـدموع عزيزة، وتسربت الغبطة الى الجميع وكانوا بين دامع العين ومن يتنهـد بارتياح كمن يلقي عن كاهله ما يئده.. وتأوهت سلمى.. في صدرها هيام للإستقلال حتى عن والدتها لتكون أسرتها هي.. وغيضت دمعة.. "لا! لن أسمح لوجودي أن يستمر الاّ بأفضل من وجودي"..

راحت تتأمل منظر القدس العام من الشرفة بشرود خلال فروع شـجرة اللوز العبلة، وقد اتكأت على نجاف النافذة الرحبة التي تجعل مـن الحـائط الغربي لوحة فنية رائعة وقالت لنفسها "سأكون متكتمة نحـو والـدتي فمـن العسير علينا أن نتفاهم!"

ٍوعبرت رجاء الغرفة تتوثب:

- سلمى.. هلمي الى الكرم فقد صحا الجو، ولا يحسن أن نفـوت نزهتنـا!

فابتسمت سلمى وانسحبت بهدوء الى الحديقة الجرداء المنحدرة..

* * *

حزبت الأمور وأقدم اليهود على نسف فندق سميراميس.. جريمة مروعة أخرى من سلسلة جرائمهم.. وفي يوم كانت فيه في المعهد، سـمع انفجـار قريب، وتداولت طلقات الرصاص، ودوى إنذار منـع التجـول، وتجمهـر الطلاب حول الأستاذ البريطاني.. وراح يسألهم عما يفعلون في حـال قيـام ثورة.. كان الطلاب اليهود كثرة وتكلّموا بما يثيـر الأعـصاب، وتـشافنوا والطلبة العرب بالنظرات الحاقدة، وتراشقوا بالألفاظ النابية، وأحست سـلمى بتكهرب الجو فانسحبت..

في الطرقات الخاوية الاّ من الأسلاك الشائكة حول بعـض القنـصليات والدوائر راحت تغذ السير.. ولكن الطريق أصـبح معترضـا بالأسـلاك.. وأسقط في يدها.. ان عليها أن تسير في شوارع يهودية لا تعرف مـداخلها ومخارجها، وهي مستفردة والرصاص يدوي حولها، فرأت أن أفـضل مـا تفعله أن تعود الى المعهد.. ولكنها تخشى أن يستمر منع التجول الى ما بعد الغياب.. وفيما هي في حيرتها اذ تلمح جهاد مقبلا نحوها، وهو شاب تعرفت اليه في مقر المجلة حين تذهب لأخذ التعويض عن قصصها، فأبرق وجهها، وحياها بابتسامة رقيقة، تنفرج عن أسنان نضيدة "هل رأيـت مـا ذا فعـل الأوغاد؟ قامت معركة إثر خروجك ولولا تدخّل الأستاذ لانتهت الى عـراك دام.. لقد سمعت طرفا من حديثهم.. كأنما هم أصـحاب الـبلاد الأصـليون ونحن الدخلاء.. والله لن أعود الى المعهد بل سأقابلهم هناك.. في المعركـة الدامية الشريفة!" فأجابته: "وأنا لن أعود.. سأتطوع في التمريض وأعد نفسي للحوادث"..

ودالا في السير وهما يتحادثان.. ومرا بفندق سميراميس وتمثلت سـلمى الأحياء الذين دفنوا تحت الأنقاض فاقشعر بدنها.. وما لبثت أن استغرقت في

الإصغاء الى جهاد فطريقه طريقها وهي تشعر معه بالأمان، منتزعة نفسها من التفكير بالموت الطائر ينعب من حين لآخر.. حدثها عن آماله الكتابية، وعن والده واعتقاله ووفاته في المنفى.. وعن أيامه المدرسية، وروح الثورة الذي يلهبه، وكيف شكل فريقا من الطلاب كانوا يقومون بالمظاهرات فطرده مدير المعارف البريطاني في عامه الدراسي الأخير، فأتم دراسته في كلية الروضة البريطانية.. ولكن الوظائف الحكومية حرمت عليه بسبب ماضي والده الثوري فدرس الصحافة عن طريق المراسلة، وعمل مع رئيس التحرير في المجلّة التي تكتب فيها..

كان جهاد بادي المرح حلو الفكاهة واستطاع أن يحمل سلمى على الضحك لنوادره.. وهمس وقد جفلت لانفجار قريب:

- لن يصيبنا أحد بأذى.. وسيظننا من يرانا مغرمين!..

وحدجته بعتاب على جرأته بغير أن تغضب منه.. انه صبوح خفيف الظل ولا يمكن لمن يعرفه الاّ أن يستلطفه..

* * *